الرسالة

(٢ تيموثاوس ١٠:٣-١٥)

يا ولدي تيموثاوسَ إنَّك قد استَقَرَيْتَ تعليمي وسيرتي وقصدي وإيماني وأناتي ومحبَّتي وصبري* واضطهاداتي وآلامي وما أصابني في إنطاكيةَ وإيقونيةَ ولِسترة. وأيَّةَ اضطهاداتٍ احتملتُ وقد أنقذني الربُّ من جميعها* وجميعُ الذينَ يريدون أن يعيشوا بالتقوى في المسيحِ يسوعَ يُضطَهَدون* أمَّا الأشرارُ والمغوونَ من الناسِ فيزدادونَ شرًّا مُضِلّينَ ومُضَلّين* فاستمرَّ أنت على ما تعلَّمتَه وأيقنتَ به عالِماً مِمَّن تعلَّمت* وأنَّك منذ الطفوليَّةِ تعرِفُ الكتبَ المقدَّسةَ القادِرةَ أن تُصيِّرَك حكيماً للخلاصِ بالإيمانِ بالمسيحِ يسوع.

القديس بوليكاربوس أسقف إزمير

في الثالث والعشرين من شهر شباط تعيّد كنيستنا المقدسة للشهيد بوليكاربوس، أسقف إزمير الذي راسله القديس إغناطيوس الإنطاكي وهو في طريقه إلى الإستشهاد. عايش القديس بوليكاربوس الرسل الأطهار وينقل لنا المؤرخون الكنسيون أنه تتلمذ على القديس يوحنا اللاهوتي ونال الأسقفية منه. كان للقديس بوليكاربوس، في وسط شعبه وفي الأوساط الكنسية الناشئة آنذاك، مكانة وتوقير بالغان. من الدلالات على هذا، ذهابه إلى روما في منتصف القرن الثاني والحوارات التي أجراها هناك مع أنيكيتوس بابا روما بشأن العديد من المسائل الكنسية، لا سيما منها مسألة تحديد تاريخ التعييد للفصح، المختلَف عليها بين الكنائس آنذاك. بحسب المؤرّخ الكنسي أفسافيوس لم يحصل أي اتفاق بهذا الشأن بين الراعيين، لكنهما اشتركا معاً في الخدمة الإلهية وتناول بوليكربوس القدسات من يد بابا روما، وافترقا فيما بعد بمحبة وسلام.

طيلة زمان أسقفيته، عمل القديس بوليكاربوس بجدٍ وغيرةٍ على تقصّي التعاليم المُضِلّة ومحاربتها، هداية الضالّين وحضنهم، وتعزيز إيمان المؤمنين. ما يحفظه لنا التراث من تعاليمه يدلّ على مبادئ أساسية متينة لما صار فيما بعد عقائد، لا سيما فيما يختص بالتعليم الخريستولوجي وسر الفداء الحاصل على الصليب، والتنظيم الكنسي ومزايا الرعاة، إلى التعليم المتعمّق في أمور الفضيلة وعيش المسيحية بحق. أما النص الوحيد المتبقي لنا كاملاً من كتابات هذا القديس، فهو رسالة من أربعة عشر فصلاً وجّهها إلى المسيحيين في فيليبي، بُعَيد استشهاد القديس أغناطيوس الإنطاكي (حوالي سنة ١٠٧). لا تتميَّز الرسالة المذكورة بأي جمال أدبي لافت، إلا أنها محبوكة بالكتاب المقدس حبكاً. وهي تنقل إلينا صورة جلية عما كان في الكنيسة آنذاك من عقيدة وتنظيم كنسي وأهمية لعيش المحبة والرحمة وأعمال البر، والسلوكيات المسيحية التي ترضي

العدد ٨ / ٢٠١٦

الأحد ٢١ شباط

أحد الفريسي والعشار

تذكار البار تيموثاوس

والقديس إفستاثيوس الأنطاكي

اللحن الخامس

إنجيل السَحَر الخامس

الله.

في العقيدة، ترسم الرسالة معالم واضحة للمفاهيم الخريستولوجية كما كانت قد تبلورت آنذاك، لا سيما فيما يختص بالتجسد الإلهي وموت السيد على الصليب وقيامته ومجيئه الثاني، إلى سواها من المبادئ الإيمانية مثل قيامة الأموات والدينونة، في وجه «التعاليم المُضلّة» التي كانت بدأت تنسلّ في تلك الأيام: «فكل من لا يعترف بأن يسوع المسيح قد جاء بالجسد هو ضدّ المسيح، وكل من لا يعترف بالشهادة على الصليب هو من الشيطان، ومن يحوّر كلام الرب من أجل رغباته ومصالحه الخاصة، ولا يعترف بقيامة الموتى وبالدينونة هو بكر إبليس»، يقول القديس في رسالته.

ليس في رسالة بوليكربوس ما يشير إلى وجود أسقف على فيليبي، لكنه يحث المؤمنين على إتمام الطاعة الواجبة للكهنة والشمامسة «وكأنها الطاعة لله وليسوع المسيح». وحول ما ينبغي أن يتحلّى به الكاهن من مزايا، يقول القديس: «على الشيوخ أن يكونوا أيضاً شفوقين رحماء نحو الجميع. عليهم أن يجهدوا في العمل على إعادة الضالين، أن يزوروا المرضى ولا يهملوا الأرملة واليتيم والفقير معتنين بالأمور الحسنة أمام الله وأمام الناس؛ كما عليهم أن يجتنبوا الغضب ومحاباة الوجوه والحكم الخاطئ، أن يحفظوا أنفسهم من محبة المال ولا يصدّقوا بسرعة ما يقال عن شرور الآخرين وأن لا يكونوا قساة في حكمهم على من يخطئ، واضعين نصب أعينهم أننا كلنا معرضون للخطيئة».

إلى جانب أعمال البر والفضيلة التي يحث عليها القديس على مدى رسالته، يحتل الإحسان في تعليم بوليكربوس مكانة عُليا، إذ إن المؤمن المحسن يصبح على مثال الرب نفسه، وبأعمال الرحمة والمحبة يُظهر صلاح سيده، تشديداً للمؤمنين وتشجيعاً للمترددين وآية من آيات مجد الله للأمم والغرباء. يقول: «متى قُدّر لكم أن تصنعوا الإحسان لا تتأخروا، فالإحسان ينجّي من الموت. كونوا خاضعين بعضكم لبعض، واحفظوا السلوك الحسن بين الأمم والغرباء عن الإيمان فتُمتدحون من أجل أعمالكم الصالحة، لئلا تكونوا سبباً لإهانة الرب، لأنه ويل لمن يُشتَم اسم الرب بسببهم. علّموا الجميع الوداعة، وأظهروها أيضاً في مسلككم».

فصلان كاملان من الرسالة، وآيات عديدة في فصول أخرى، خصصها القديس لموضوع الصبر المبني على الرجاء والمدعوم بالصوم والصلاة، تمجيداً للرب يسوع الذي «حمل خطايانا في جسده على الصليب وهو لم يفعل خطيئة، لكنه احتمل كل شيء من أجلنا لنحيا نحن فيه». المؤمن الصابر يتشبّه بصبر السيد له المجد، الذي «أعطانا هو المَثَل ونحن آمنّا به». يتمثّل بوليكربوس في حثه على الصبر والرجاء بما عاينه من مآثر القديسين، وهو يتخذها مثالاً حياً ينبغي أن يُحتذى، إذ يقول: «أرجوكم جميعاً أن تطيعوا كلام العدل وتمارسوا الصبر الذي عاينتموه في المغبوطين أغناطيوس وزوسيماس وروفوس، بل وفي الآخرين الذين منكم، وفي بولس نفسه وبقية الرسل، واثقين أن كل هؤلاء لم يسعوا باطلًا بل بإيمان وعدل، وحباً بمن مات من أجلنا وقام».

أما استشهاد القديس بوليكاربوس فترويه بالتفصيل رسالة من مؤمني إزمير إلى إخوتهم في

الإنجيل

(لوقا ١٨: ١٠-١٤)

قال الربُّ هذا المَثَل. إنسانان صعِدا إلى الهيكل ليُصلِّيا أحدُهما فِرّيسيٌّ والآخرُ عشَّارٌ* فكان الفريسيُّ واقفاً يصلّي في نفسه هكذا: أللَّهمَّ إنّي أشكركَ لأنّي لست كسائر الناس الخَطفةِ الظالمين الفاسقين ولا مثلَ هذا العَشّار* فإنّي أصوم في الأسبوع مرَّتينِ وأُعَشِّرُ كلَّ ما هو لي* أمَّا العَشّار فوقف عن بُعدٍ ولم يُرِدْ أن يرفعَ عينيه إلى السماء بل كان يقرعُ صدره قائلًا: أللَّهم ارحمني أنا الخاطئ* أقول لكم إنَّ هذا نزلَ إلى بيته مُبرَّراً دون ذاك. لأنَّ كلَّ مَن رفع نفسه اتَّضع ومَن وضع نفسه ارتفع.

تأمل

«وإنّك منذ الطفولية تعرف الكتب المقدّسة القادرة أن تصيّرك حكيماً للخلاص بالإيمان

بالمسيح يسوع».

لا يقدر أحد أن يُقبل إلى المعرفة الروحية ويدرك بالتالي نعيم ملكوت السموات المدعو مشاهدة روحية، ما لم يرجع ويصبح مثل الطفل. وهذه المشاهدة ليست كائنة في أعمال الفكر، بل يمكن تذوقها بالنعمة، ولا يمكن أن يسمع بها غير الإنسان الطاهر، لأن اقتناءها لا يحصل بالعلم. فإذا بلغت، يا بني، إلى طهارة القلب بالإيمان، تلك الطهارة التي تتم في السكينة والبعد عن الناس، ونسيت معرفة هذا العالم، لدرجة أن تفقد إحساسك بها، فستصادف أمامك المعرفة الروحية فجأة ودون أن تبحث عنها، كما قال الرب ليعقوب: «أقم عموداً وصب عليه زيتاً تجد كنزاً في حضنك» (تك ٢٨: ١٨). أمّا إذا تقيّدت بالمعرفة الدنيوية فلا بد أن أقول لك إنه لأسهل أن تُحل من العقالات الحديدية من أن تُحل منها، وإنك لست بعيداً عن فخاخ الضلال، ولن تحصل على فريجية الصغرى. بُعيد رجوعه من روما، وتحديداً في ٢٣ شباط سنة ١٥٦، نُفِّذ بالقديس حكم الإعدام حرقاً بالنار بأمر من حاكم آسيا ستاتيوس كوادراتوس. هذا كان عرض على بوليكربوس، فور اعتقاله، النجاة مقابل أن ينكر المسيح ويذبح للأوثان. فما كان من القديس إلا أن بادره قائلاً «ستاً وثمانين سنة قضيتها في خدمة المسيح، ولم يظلمني يوماً بشيء. فكيف لي إذاً أن أهين مَلِكي ومخلّصي؟». حتى إنه رفض أن يسمّره الجلادون على خشب المحرقة قائلاً لهم: «الذي يقوّيني على احتمال النار، سيمنحني القدرة على البقاء ثابتاً فيها دون مساميركم». يشار إلى أن الرسالة التي هي أقدم نص موجود يحكي أخبار شهيد، تتّسم بطابع تعليمي بحد ذاتها، بحيث أنها تخط أقدم تعليم عقائدي عن الإستشهاد وعلاقتنا بالشهداء والقديسين. فالشهيد يقتدي بالمسيح في آلامه وموته الطوعي. وتذكاره وبقاياه تصبح مصدر تعزية وبركة للمؤمنين. يقول النص أن مؤمني إزمير جمعوا بقايا أسقفهم الشهيد «ككنز أثمن من الجواهر وأشرف من الذهب الخالص»، لوضعها في المكان الذي يليق بها، «حتى نجتمع حولها، إن قدّرنا الله، ممتلئين فرحاً وسروراً، لإحياء ذكرى استشهاده».

كذلك يعرض النص بدقة الفرق الجوهري بين عبادة الله وإكرام قديسيه: «هو (الرب) نعبده لأنه أبن الله. أما هم فنكرّمهم ونتعزى بهم كتلاميذ للسيد ومتشبّهين به، وهذا عدل بسبب تفانيهم الذي لا يقارن في حبّهم وطاعتهم لمَلِكهم وإلههم».

بين تواضع العشار وتكبّر الفريسي

سمى الآباء القديسون هذا الأحد أحد الفريسي والعشار نسبةً للمقطع الإنجيلي الذي يُقرأ في هذا اليوم من الإنجيلي لوقا (١٨: ١٠–١٤). وابتداءً من هذا الأحد تهيّئنا الكنيسة المقدسة للدخول في الصوم الكبير المقدس باعثةً فينا الروحانية التي يجب أن نحياها خلال فترة الصوم الأربعيني المقدس لنصل في نهايته إلى معاينة قيامة ربنا يسوع المسيح من بين الأموات منتصراً على الجحيم.

نموذجان بارزان يضعنا أمامهما الإنجيلي لوقا. العشّار جابي الضرائب الخاطئ والفريسي المتديّن حافظ الشريعة. يقدّم الأول نموذجاً للتواضع أمّا الثاني فهو نموذج التكبّر. الفريسيّ الذي يدّعي التمسك بالوصايا والمكتفي بذاته بدأ صلاته مبرزاً نفسه بالصوم مرتين في الأسبوع والصلاة وتوزيع المال وكأنّه يقدّم جردة حساب عن أفعاله ليبرهن لله أنّه إنسانٌ صدّيق وبار، وفي الوقت ذاته يحتقر العشّار الذي لا يجسر أن ينظر إلى السماء بل يقرع صدره طالباً الصفح عن ذنوبه.

تكبّر الفريسيّ جعله يرى أنّه وحده على صواب، مقارناً نفسه بالعشّار ومنتصباً ذاته ديّاناً «أشكرك أني لست مثل باقي الناس... ولا مثل هذا العشّار» (لو١٨: ١١). منذ البدء كان الكبرياء الخطيئة الكبرى. لوسيفوروس المتقدّم في الملائكة ومن معه صاروا شياطين، إذ تكبَّروا على الله وأرادوا الاكتفاء بأنفسهم، وظنوا انهم أفضل من الله. هذا التكبَّر عينه كان سبب طرد آدم وحوَّاء من الفردوس عندما اقنعهما الشيطان بأنهما يصيران آلهة كالله «الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح

أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر» (تك٣: ٥). المتكبِّر لا يشعر بحاجة إلى نعمة الله التي تكمِّل كلَّ ضعف. التكبّر جعل من الفريسيّ صنجاً فارغاً يرّن باطلاً (اكو١٣: ١)، محتقراً أخاه الإنسان، ومظهراً ما في قلبه من حقدٍ وكرهٍ له. المتكبَّر لا يعرف المحبة «الانسان الصالح من كنز قلبه الصالح يُخرج الصلاح، والانسان الشرير من كنز قلبه يُخرج الشرّ. فإنَّه من فضلة القلب يتكلّم فمهُ» (لو٦: ٤٥).

في المقابل، نرى العشَّار «لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء، بل يقرع صدره قائلاً: اللهم ارحمني أنا الخاطئ» (لو١٨: ١٣). لم تكن لديه أفعال صالحة يعدّدها كما فعل الفريسيّ لكنَّه كان يقرع صدره بانسحاقِ قلبٍ وتوبةٍ طالباً الغفران. لقد وعى العشَّار عيوبه وضعفاته وأنَّه إنسان خاطئ. هذا هو التواضع: أن نعرف ذواتنا ونميّز هفواتنا وخطايانا المعششة في قلوبنا، ونعترف بخطايانا وبأن ليس من أحدٍ كاملاً. التواضع شرط أساسي للنمو في الفضيلة. إنَّه الحاجز المنيع ضد التجارب، والتربة الصالحة التي فيها تتجذّر كل الفضائل الأخرى وتنمو. لا يستطيع أحدٌ أن يتواضع إن لم يتأمّل في تواضع المسيح ويشتهي مماثلته. «الذي إذ كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبدٍ صائراً في شبه الناس. وإذ وُجِدَ في الهيئة كإنسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت موت الصليب. لذلك رفعه الله أيضاً وأعطاه اسماً فوق كل إسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة» (في ٢:٦–٩). التواضع مسيرة ونمط حياة دائمين. يقول الرب «احملوا نيري عليكم وتعلَّموا مني لأنّي وديع ومتواضع القلب» (مت١١: ٢٩). يقول القديس سلوان الآثوسي: «يخاف المتكبّر التأنيب لكن المتواضع لا ينزعج أبداً، أما الذي بلغ الى تواضع المسيح فيتوق بإستمرار إلى أن يبكّتَ ذاته. يقبل الإساءات بفرح ويحزن عندما يعظمونه، لكن هذا ليس الا بدء التواضع لأنَّ النفس متى عرفت، بالروح القدس، كم السيد متواضع وعذب، تحسب ذاتها أسوأ الكل وتفرح بأن ترى الناس، بالروح القدس، مضيئين ومشابهين للمسيح».

في اليوم الأول من التهيئة للصوم الكبير، شاءت الكنيسة أن يكون التواضع نقطة انطلاقنا في حياتنا الروحية. هذا الأمر يتطلب منا صلاة كثيرة وانسحاق قلب. الدعوة اليوم هي أن ننظر إلى أعماقنا ونعيد حساباتنا، والأهم أن نقدِّم توبةً صالحةً. متى تواضع الإنسان واعترف بخطاياه يكون ابتدأ بتوبة صادقة.

في خدمنا الليتورجية لهذا اليوم نقول: «لا نصلينَّ يا إخوة فرّيسياً لأن من يرفع نفسه يتضع، بل فلنتذلّل أمام الله متضعين، ولنهتف بواسطة الصيام بصوت العشّار قائلين: اللهم اغفر لنا نحن الخطأة» (من صلاة الغروب) وأيضاً «يا رب ان الفرّيسي لمَّا برَّر ذاته متفاخراً بأعماله شجبته وأمَّا العشَّار فلما تقدَّم بتذلُّل جزيل والتمس اغتفاراً بتنهُّداتٍ برَّرته لأنَّك لا تقبل الأفكار المتعظّمة ولن ترذل القلوب المنسحقة. لذلك ونحن نجثو لديك بتواضعٍ يا مَن تألمتَ لأجلنا امنحنا الغفران والرحمة العظمى» (من صلاة السحر).

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:
www.quartos.org.lb

الدالة والثقة بالرب، وإنك ستظل سائراً على حد السيف بصورة دائمة، ويستحيل عليك أن تتخلص من الحزن. اعترف أمام الله وتضرع إليه ببساطة حتى تسلك أمامه سيرة صالحة، وتصبح بدون هم، لأنه كما أن الظل يتبع الجسد هكذا الرحمة تتبع التواضع. فإذا كنت تريد أن تسير على هذه الطريق فلا تمدّ يداً للأفكار السقيمة. وإذا أحاطت بك كل الأضرار والشرور والمخاطر التي تسبب لك الرعب فلا تهتم بها ولا تحسب لها حساباً.

إذا آمنت بالرب القادر على حفظك فلا تهتم بل قل لنفسك: إن الذي سلّمته ذاتي يكفيني في كل شيء، ولم أعد أنا المدبر لحياتي بل هو. وعندئذ تشاهد عجائب الله بالفعل وترى أنه قريب دوماً لإنقاذ الذين يخافونه، وأن عنايته تشملهم دائماً بحال غير منظورة.

القديس إسحق السرياني